مقياس : عمارة رومانية و بيزنطية

سنة الثالثة ليسانس

أستاذ المادة : حكيم حميدة

مح رقم 02

- الزحف الوندالي على شمال إفريقيا:

يعتبر الشعب الوندالي من الأقوام البربرية الجرمانية. كان مسقط رأسهم شبه الجزيرة الاسكندينافية، عبروا بحر البلطيق واستقروا وسط أوروبا ولم ينزلوا بسواحل إفريقيا إلاّ بعد قرون من الهجرة. مرّوا من بحر البلطيق إلى سهول الأودر والفستول الأعلى في حوالي القرن الأول قبل الميلاد، ثم انتشروا عبر نهر الراين والدانوب خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، ليستقروا أخيرا جنوبا ما بين نهري الألب والراين.

ينحدر الوندال من جنسين كبيرين: السيلينغ والهاسدينغ، إلتحقت بهم في هجرتهم شعوب أخرى كقبائل الآلان والسواف فاخترقوا سويا خط الليمس الدفاعي المنتصب على ضفة نهر الراين بالقرب من مدينة مايونس، وفي 406 دخلوا بلاد الغال ومكثوا فيها قرابة ثلاث سنوات، ثم شدوا الرحال إلى إسبانيا في 409 واستقروا فيها مدة عشرين سنة. نزح الوندال نحو الجنوب و في عام 425 انتزعوا كل من قرطاجنة وأشبيليا من أيدي الرومان.

في تلك الفترة كانت الجهة الغربية من الامبراطورية الرومانية تتخبط في مشاكل خاصة بعد موت الإمبراطور هونوريوس سنة 423 و بعد مدة من الاضطرابات والصراعات على خلافة العرش تم تنصيب ابن أخته فالونتينيانوس الثالث ، الذي كان صبيا لهذا السبب أخذت أمه غالا بلاسيديا مقاليد الحكم بمساعدة الكونت بونيفاص

(بونيفاص: كان في عام 417 منبري يشرف على حراسة مركز حدودي بمدينة طبنة ويحرس أيضا منطقة الحضنة. عين عام 422 كونت لإفريقيا من طرف الأمبراطور هونوريوس. إثر وفاة هذا الأخير ونظرا للدور الذي لعبه في الأحداث التي جعلت من فالونتينيانوس الثالث أمبراطورا، كان يطمح في الحصول على رتبة قائد الجيشين وهي القيادة العليا، لكن شاءت المؤامرات في حلقة السلطة أن يترك سدى مما جعل غضبه شديد وخيبته كبيرة.)

أما بلاد المغرب آنذاك فكان ينعم بالسلم والرخاء الاقتصادي، وكان بمثابة المصدر الأول والرئيسي لتزويد روما بالقمح، في نفس الفترة كانت هذه الأخيرة تعاني من هجمات أعدائها النازحين من أوروبا الشمالية والغربية، فأصبحت شمال إفريقيا ملجأ للفارين منها.أما من الناحية الاجتماعية و الدينية فكانت الأوضاع مخالفة، كما سبق و أن ذكرنا، حيث تمكنت الديانة المسيحية من السيطرة وفرض قوتها ونفوذها على المنطقة كما كثرت المشادات بين سكان المدن المرومنين والقبائل المورية.

هذه الأحداث التي تعاقبت على المنطقة منذ القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس والتقلبات السياسية والعسكرية في نظام السلطة الرومانية هي التي مكنت الوندال من استغلالها وزحفهم إلى شمال إفريقيا، وهم يبحثون على أرض تأو يهم بعد هجرة دامت عدة سنوات. كما تراجعت السلطة الرومانية عن عدة أقطار من المغرب القديم خاصة الجهة الغربية منه، تاركة المجال للقبائل المورية التي سيطرت على الوضع واجتازت خطوط الليمس للقرنين الثالث والرابع. وقد كان لضعف الأمبراطورية الرومانية في قوتها العسكرية، وكذلك محاصرة حدودها سواء كانت في أوروبا أو في إفريقيا من الأسباب المباشرة التي ساعدت على تقهقر نفوذها وتقلص ممتلكاتها وانهيارها تدريجيا في القسم الغربي منها.

من أهم العوامل عدة التي ساقت بالوندال إلى شمال إفريقيا ما يلي:

أ) استنجاد الكونت بونيفاص بالوندال بعد تعرضه لهجوم من قبل حاشية غالا بلاسيديا، حيث اتهم بالخيانة بعد زواجه بوندالية فتفطن للخطر فطلب من أهل زوجته يد المساعدة. ويبقى تصرف بونيفاص لدى العديد من المؤرخين هو السبب المباشر لاجتياح الوندال لشمال إفريقيا.

ب) عدم تقدير الخطر الوندالي وإعطائه القسط اللاّزم من الدراسة السياسية العسكرية من طرف أباطرة روما، الذين كانوا منهمكين في الصراعات الداخلية.

ت) الوضع العسكري الروماني المزري وتراجع خطوطه الدفاعية ممّا سهل عملية التوغل للونداليين.

ث) إنهيار الركيزة العسكرية التي كانت بمثابة العمود الأساسي للوجود الروماني عبر أرجاء الامبراطورية. كان الجيش الروماني في إفريقيا متكون من إحدى عشرة فرقة عسكرية وعدد هائل من الفرق المساعدة، أي عدديا لدينا 21.000 جندي: أي 11.000 من المشاة و10.000 من الفرسان. انحلّت البعض من هاته الفرق العسكرية والبعض الآخر وجهت إلى إيطاليا والباقية أسندت لها مهام الحدود الشمالية للأمبراطورية الرومانية، ولهذه الأوضاع لم يتلق المغرب القديم المساندة العسكرية.

ج) أدرك الوندال أنهم لن يجدوا بشمال إفريقيا مقاومة كبيرة وذلك نتيجة ضعف الرومان وسخط الأهالي عليهم، فاغتنموا هذه الفرصة.

ح) الثروات الزراعية بشمال إفريقيا تعوض بكثير تلك التي تركها جنسريق بشبه جزيرة إيبريا، وفي نفس الوقت تمثل سلاحا غذائيا في يده يهدد به روما.

حملة جنسريق على شمال إفريقيا:

أشارت المصادر القديمة إلى الأعمال الشنيعة التي ارتكبها الوندال بقيادة الملك جنسريق (429-477 م) في حق سكان شمال إفريقيا فلم تسلم من بشاعتهم الممتلكات ولا الأرواح ولا أماكن العبادة ولو أن بعض الباحثين يرون بأن هذه القضية مبالغ فيها. كانت الرحلة إلى أراضي شمال إفريقيا بمثابة هجرة جماعية قصد من ورائها الإطاحة بقرطاجة و بالتالي الإطاحة بالكيان الروماني ثم الاستقرار النهائي بأراضي شمال إفريقيا. إختلفت الآراء حول الطريق الذي سلكه الوندال إلا أن اتجاههم كان من الغرب نحو الشرق . توغل الوندال إلى منطقة نوميديا، شكل خطرا كبيرا على الكيان الروماني و أدركت بلاسيدا أن الأمبراطور فالونتنيانوس الثالث في خطورة لذا فلجأت إلى إقامة الصلح مع بونيفاص، بمساعدة أغسطينوس أسقف مدينة عنابة، ثم أسندت له مهام قيادة الجيش بأكمله لصدّ الزحف الوندالي لكنه فشل في مهمته و هزم في ضواحي مدينة هيبون، ففرّ والتجأ مع ما تبقى من جنوده بداخل المدينة، فحاصره جنسريق في 430م ودام الحصار أربعة عشر شهرا، توفي خلاله الأسقف أغسطينوس في 28 أوت 430م و في شهر أوت 431م سقطت المدينة وفتحت أبوابها للغزاة وفرّ الكونت بونيفاص إلى قرطاجة. لم تؤكد الحفريات الأثرية ولا الدلائل المادية أقوال بوسيديوس أسقف مدينة قالمة حول هجرة سكان هيبون لمدينتهم بعد موت أغسطينوس و حرقها من طرف الغزاة، وما ينفي هذه الحادثة التاريخية أن نفس القائل يخبرنا بأن مكتبة أغسطينوس الشهيرة كانت ما تزال على حالها ووضعت تحت تصرف المسيحيين.

أصبحت شمال إفريقيا ما عدا سيرتا وقرطاجة تحت قبضة الوندال في نهاية 431م، فشعر الرومان، سواء كانوا من القسطنطينية أو من روما، بالخطر الذي سوف يهددهم في عقر ديارهم. فحظيت قرطاجة بكل العناية. فعززت بسور دفاعي و بوحدات عسكرية جهزت بعناية امبراطور الجهة الشرقية و دخلت روما في التفاوض مع أعدائها، و أبرمت إتفاقية تشير إلى اعتبار الوندال حلفاء يدفعون الضريبة السنوية كما قدم جنسريق ولده هونيريك كرهينة للرومان.

ظلت أنظار الوندال منصبة على قرطاجة فاستغل فترة الهدنة مع الرومان لتعزيز نفوذه والتخطيط لمهاجمة آخر معقل للسلطة الرومانية. وبالفعل استولى على قرطاجة يوم 19 أكتوبر 439م وتذكر المصادر أن هذه المدينة المحصنة سقطت في يد جنسريق بالحيلة دون

معركة. بعد سقوط قرطاجة قطع جنسريق تموين روما بمنتوجات شمال إفريقيا وهاجم الجزر المجاورة لإيطاليا بما فيها صقلية عام 440م. اضطرت روما لإبرام معاهدة جديدة عام 442م وكانت في هذه الفترة في صالح الملك الوندالي. فتخلى جنسريق على المقاطعات التي كانت تحت سلطانه وتحصل بالمقابل على المناطق الخصبة والتي تتمثل في مقاطعات البروقنصلية وبيزاكينا ونوميديا. رغم هذه العهود توالت الهجمات الوندالية على كل جزر البحرالأبيض المتوسط، و وصلت حتى روما و دامت الأوضاع على حالها إلى أن أبرمت معاهدة أبدية في 474م اعترفت له بحق الملكية في كل شمال إفريقيا وجزر البحر المتوسط.

نلتمس من هذا الاتفاق أن للوندال الشطر الغربي من البحر المتوسط بينما يسيطر أهل القسطنطينية على الشطر الشرقي. وانهارت روما في سبتمبر 476م وسقطت تحت ضربات الملك أوداكر وبقيت القسطنطينية هي التي تمثل استمرار الحضارة الرومانية وتوفي في السنة الموالية في 24 فيفري 477م الملك جنسريق تاركا الحكم والعرش لولده الأكبر هونيريك (477-484).

لم يحدث الوندال تغييرا ملموسا في التركيبة الاجتماعية للرومانو إفريقيين، فاكتفوا باحتلال النقاط الإستراتيجية في المجال الاقتصادي باتخاذهم المناطق التي تزخر بالأراضي الخصبة. وتجسدت سيطرتهم خاصة في مقاطعة البروقنصلية ومقاطعة بيزاكينا وشطرا من نوميديا، بينما شملت هذه السيطرة بنسبة ضئيلة ولوقت محدد كل من موريطانيا القيصرية والسطايفية ولم تمس مقاطعة موريطانيا الطنجية.

<u>أوضاع إفريقيا إبّان الحكم الوندالي:</u>

إن الوضع في إفريقيا إبّان الحكم الوندالي (حوالي قرن من الزمن) شملته تقلّبات يمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

مرحلة حكم الملك جنسريق :

كانت قبضة جنسريق على إفريقيا الشمالية محكمة طوال فترة حكمه، تذكر المصادر القديمة أنه اكتفى بالجهة الشرقية من المغرب القديم كمنطقة استقرار لحكمه و تؤكد الدراسات الحديثة امتداد الوندال باتجاه الغرب نحو الأقاليم الموريطانية. عرفت شمال إفريقيا تحت سلطة جنسريق تراجعا في التوترات والاضطرابات فلم يحرك الأهالي ساكنا طوال هجرة الوندال من الغرب إلى الشرق، فيرجع بروكوب ذلك إلى كونهم يخشون أن يسحقهم جنسريق .كما يرى البعض أنه تم اتفاق بين الأهالي و المور حول التحالف للقضاء على

الرومان. و الأحداث التاريخية تؤيد تلك الفكرة لا سيما مرافقة المور للوندال أثناء غزوتهم على مدينة روما عام 455م، و اقتسام الرهائن والغنائم أثناء عودتهم إلى قرطاجة. في الحقيقة فإن بعض الأقاليم كموريطانيا كانت تارة تحت الرقابة الوندالية وتارة في قبضة ملوك المور، حيث جعل منهم الملك جنسريق حلفاء عسكريين يأخذون منه وسام السلطة التي ترمز إلى سيطرتهم على مقاطعة موريطانيا القيصرية وجنوب موريطانيا السطايفية، لكنه كان يراقبهم ويفرض سلطته عليهم حتى وفاته عام 477.

مرحلة حكم ما بعد جنسريق حتى قدوم البيزنطيين:

في هذه المرحلة تغير الوضع فذكر بركوب أنه تحت حكم الملك هوينريك (477- 484) لم يعرف الوندال أية حرب سوى مشادتهم مع المور. خلال تلك الفترة تعدّت سلطة الوندال كل المقاطعات الشرقية واجتازت نوميديا ووصلت إلى عمق موريطانيا السطايفية والقيصرية ، و قد عثر على أدلة مادية تثبت ذلك من بينها كتابة كويكول المؤرخة في 463 تبين سلطة الوندال على هذه المنطقة و كتابة خربة الماء الأبيض على بعد 30 كلم في الجنوب الشرقي لكويكول تؤرخ 474.

ومهما كان من أمر، فإن حدود السلطة الوندالية تعاكسها رغبة الإمارات المورية في تحقيق المزيد من الاستقلالية، فمن صفة حلفاء أصبحوا يمثلون المنافس العنيد الذي وصف به أسلافهم.

الأوضاع الدينية لشمال إفريقيا أثناء التواجد الوندالي:

كان الوندال على مذهب الآريوسي، وصفوا الوندال بوحشيتهم وهمجيتهم واعتبروا متطرفين في أسلوبهم الديني، وذهب بعض رجال الدين الكاثوليك بنعتهم بأقبح الصور على الوجود، و اتهموا بتخريب و تهديم الكنائس و تدنيس المقدسات و قتل رجال الدين، لكن يرى الباحثون أن هذا مبالغ فبه خاصة لو أخذنا بعين الإعتبار البراهين المادية التي لا تبين الدمار والخراب لأماكن العبادة، فلم يجد علماء الآثار في حفرياتهم أدلّة تعكس لنا الواقع المزري للكنيسة الكاثوليكية.

لكن هذا لا ينفي بعض الاضطهادات التي عرفتها الكنيسة الكاتوليكية من ملك للآخر ومن منطقة إلى أخرى حيث اشتدت بصفة خاصة في مقاطعة البروقنصليةة أما بيزاكينا ونوميديا والطرابلسية فلم تعان من نفس الانتهاكات واحترمت أماكن العبادة، واقتصر

التعسف على عزل بعض من رجال الدين المناهضين للكيان الوندالي. و لعل أعسر فترة مرّت بها الكنيسة الكاتوليكية كانت أثناء قترة حكم هونيريك. بدأ هذا الملك عهدته ببعض التنازلات تخدم فكرة التسامح الديني، فأباح في أول الأمر بالعودة إلى حرية الاعتقاد كما أجاز في 480 بأن تقام الانتخابات لتعيين أسقف جديد لمدينة قرطاجة، المنصب الذي كان شاغرا لمدة 24 سنة.لكن سرعان ما أظهر حقيقة طبعه، أريوسيا متعصبا، أراد فرض عقيدته بالقوة على كل المجتمع الإفريقي.

الأوضاع الاجتماعية:

تميزت الفترة الوندالية بشمال إفريقيا بوجود فئتين من طبقات المجتمع، فهناك التي بقيت على إنحياد في مناطقها و سعت إلى مقاومة ومنع التوغل الثقافي والحضاري الوندالي. و فئة أخرى إنصهرت في الحضارة الجديدة فأصبحت على علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع المحتل الجديد، ولذلك يجد الباحث نفسه صعوبة كبيرة لتحديد الحالة الإجتماعية للسكان الأفارفة إبان تلك الفترة.

كانت الحياة اليومية تسير وفق العهود السابقة، باستثناء الإضطرابات الدينية. كما بقيت اللغة اللاتينية هي لغة التعاملات بين النّاس وكانت إدارة المدن خاضعة للمجلس البلدي وكان قضاة و ولاة المقاطعات يلجأون في محاكماتهم إلى العمل بالقانون الروماني .قام الملك جنسريق بانتزاع الأراضي والضيعات من الملاّك الكبار والأغنياء، و هددهم بالعبودية إن لم يخضعوا لذلك.

كانت الوضعية الاجتماعية للأهالي القاطنون في المقاطعات الوندالية "من الناحية النظرية" أحسن ممّا كانت عليه أثناء الفترة الرومانية، و استطاعوا الاحتفاظ بأراضيهم سواء بصفة ملاّك أو معمرين.

ومن جانب آخر، بقيت الفلاحة هي المصدر الأساسي للثروة ، حيث نزعت الملكية من الطبقة الأرستقراطية ومن الكنيسة الكاثوليكية و بالمقابل وزعت على ما يقارب من 15000 إلى 20000 عائلة،

وظلّت زراعة الحبوب من قمح وشعير تتصدر المنتوجات الزراعية. وأكّدت لوحات ألبرتيني من إكثار في غرس أشجار التين والزيتون. هذه اللوحات التي تؤرخ بعهدة الملك غونتاموند (484-496) دلّت على النشاط الفلاحي المنتظم، فالحقول كانت مسجلة في السجل العقاري وتمّ تهيئة نظام الري.

القبائل و الممالك المورية في الفترة الوندالية :

لم يكن للوندال خط الليمس ولم يعطوا لهذا الجانب الحسّاس القسط الوافي من الوسائل والعناية، وربّما كانت هذه الاستراتيجية الخائبة هي التي أدّت إلى انهيار سلطتهم. اعتقد جنسريق حينما حطّم كل الأسوار الدفاعية للمدن ماعدا سور مدينة قرطاجة أنّه سوف يؤمن من شرّ أعدائه بأن يتّخذونها معاقل أو معسكرات تنطلق منها هجماتهم. بالعكس، هذه السياسة من جهة مهّدت للموريين الطريق في تقوية نفوذهم واستغلال ضعف عدوهم، وسهّلت من جهة أخرى عملية التوغل البيزنطي واسترجاع ممتلكاته الضائعة.

وهو ما أدّى إلى نشأة الممالك المورية وتكونت في العهد الروماني وقويت سلطانها في آخره، وإن استطاع جنسريق الحدّ من عزيمتهم باتخاذهم كحلفاء، انقلبت الأوضاع بعد وفاته وبرزت إمارات بصفة واضحة على شكل كنفديراليات قوية إلى حدّ أن لقب بعض أمرائها أنفسهم "بالملك" أو "الأمبراطور".

لقد أحصى كورتوا في بحثه الخاص بالوندال بشمال إفريقيا ثماني ممالك تتوزع عبر مختلف المقاطعات وهي على النحو التالي:

- مملكة ألتافا : متمركزة بالمنطقة الوهرانية، وكانت تحت سلطان مازونا MASUNA الذي لقب من خلال كتابة تؤرخ بـ 506م بأنه ملك قبائل المور والرومان.
- مملكة الجدار أو الونشريس : تتربّع على معظم مقاطعة موريطانيا القيصرية ماعدا شرشال وكان ملكها يلقب بماستيقاس أو ماستيناس MASTIGAS / MASTINAS.
- مملكة الحضنة :ملكها أورتياس ORTAIAS.
- مملكة الأوراس : ملكها ماستياس MASTIES ثمّ خلفه فيما بعد إيابداس IABDAS.
- مملكة الملك كوتزينا CUSINA، غير بعيدة عن مملكة الأوراس، من جهتها الشرقية.
- مملكة قفصة : جنوب مقاطعة بيزاكينا.
- شمال مقاطعة بيزاكينا كان الملك أنطلاس يقود قبائل الفراكسيس FRAXES.
- في المقاطعة الطرابلسية شكّلت قبائل لواتة بقيادة كباوون CABAON

هذه الممالك شكلت خطرا دائما على الوندال.